

القسم الأول

الفصل الرابع

أثر شرح أبي القاسم الأفليلي وقيمته

أثر شرح أبي القاسم الأفليلي في الشرح

أثنى ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد على شرح أبي القاسم الأفليلي لديوان المتنبي بقوله: «ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الأفليلي لشعر المتنبي، وهو حسن جداً» وعدّه من فضائل أهل الأندلس التي فاخر بها أهل المشرق، لكن هذا الثناء وإن سلّم لأبي القاسم الأفليلي بعموم الفضل، ونظمه في سلسلة أهل العلم ومشاركة المبدعين، إلا أنه لم يحمه من خصوص التقويم والنقد، فقد استدرك ابن حزم على هذا الشرح بمؤلف «التعقيب على الأفليلي في شرحه لديوان المتنبي»^(١).

وإذا كنا لا نعرف ماهية هذا التعقيب ولا مرتكزاته ومجالاته؛ لأنه ما زال مفقوداً، فإنه آثار حمية الدفاع عن أبي القاسم الأفليلي نجدها عند عبدالله ابن أحمد المعروف بالنّباهي تلميذ أبي القاسم من أهل مالقة، وكان عالماً بالآداب واللغات والأشعار، فكتب ردّاً على أبي محمد بن حزم فيما انتقد على الأفليلي في شرحه لشعر المتنبي^(٢).

ومثل هذا التدافع النقدي نافع في إضفاء قيمة على هذا الكتاب على نحو ما، من حيث بيان عيوبه، أو إظهار مناقبه وخصائصه، وهو مفيد بعد ذلك في إثراء الحركة الأدبية والنقدية في القرن الخامس الهجري وتقويمها. وترك شرح أبي القاسم صدى واضحاً في بعض شراح شعر أبي الطيب

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١٨ ص ١٩٧.

(٢) الصلة لابن بشكوال ٢٨٣/١.

المتنبي خاصة في صقلية ومصر، فابن القطاع^(١) ينقل عن ابن الأفليلي فيما تناوله من شرح لأبيات المتنبي فمن ذلك قوله:

ولو غير الأمير غزا كلاباً ثناه عن شموسهم ضباب
«قال ابن القطاع: قال ابن الأفليلي في شرح هذا البيت: يريد شموس كل يوم يقتلهم فيه»^(٢).

ويبدو أن أبا علي الحسين بن عبدالله الصقلي المغربي قد اطلع على شرح أبي القاسم الأفليلي وأفاد منه، وتأثر بطريقته في تناول بعض الأبيات، من ذلك قول المتنبي:

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل
قال أبو علي الصقلي: «الفطام منع الطفل من الرضاع، والتوراب لغة في التراب»^(٣).

وقال الأفليلي: «الفطام: منع الصبي من الرضاع، والتوراب لغة في التراب»^(٤).

وفي قول المتنبي:

ضلالاً لهذا الريح ماذا تريده هدياً لهذا السيل ماذا يؤمم

(١) هو أبو القاسم علي بن جعفر بن علي التميمي السعدي الصقلي (ت ٥١٥) له آثار في اللغة والأدب، منها كتاب الأفعال، وشرح ديوان المتنبي، والدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة - والموجود من شرحه لشعر المتنبي شرح بعض الأبيات في دار الكتب المصرية برقم ٢٧ ش. (انظر أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين ص ٣٨٢ ومصادره).

(٢) البيان ٨٣/١.

(٣) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي مصور عن الأصل المخطوط في مكتبة ولي الدين بتركيا رقم ٢٦٨٨ ورقة ٢٧١. وقد طبع هذا الشرح محققاً وصدر عن دار عمار في عمان - ولم يقع تحت يدي إلى الآن.

(٤) انظر القصيدة ٨ بيت رقم ٢٣ من هذا الشرح.

قال أبو علي الصقلي: «ودعا للريح بالضلال؛ لأنه يزعم أنها ما أرضت سيف الدولة، وأرادت أن تثنيه عن قصده، ودعا للسيل بالهدى، لأنه زعم أنه جاء مع سيف الدولة يزور قبر أمه، ويسقي تربتها»^(١).

ويقول أبو القاسم الأفليلي: «ثم دعا للريح ولم يدع لها، ودعا للسيل ولم يدع عليه، لأن الريح اعترضت سيف الدولة في مسيره، ولم تسعده على شيء من أموره، والسحاب وإن كان رام ثنيه بوبله، ووَعَر طريقه بسيله، فإنه تلاه متعلماً من جوده، وصحبه مسعداً له على رأيه، قاضياً لذمام القبر الذي قصده، ومروضاً بسقياه للربيع الذي اعتمده»^(٢).

وفي قول المتنبي:

وقبل يرى من جوده ما رأيته ويسمع فيه ما سمعت من العذل
قال أبو علي الصقلي: «ويجوز في قوله «ويعلم فيه ما سمعت من العذل»، الرفع والنصب، فالرفع على أنه لما حذف أن رفع عملها، والنصب على أنه حذفها وأبقى عملها ليدل عليها. وبيت طرفه:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مغلدي
يروى برفع أحضر ونصبه، كذا الأصل فيه أن أحضر الوغى، ثم حذف أن، وعليه حمل بيت أبي الطيب أيضاً»^(٣).

ويقول ابن الأفليلي: «وحذف أن من كلامه وهو يريد في قوله (وقبل يرى) والعرب تفعل ذلك، قال الشاعر:

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى

(١) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي ورقة ٣٠٢.

(٢) انظر القصيدة ٢٥ بيت رقم ١٩.

(٣) التكملة في شرح ديوان المتنبي لأبي علي الصقلي ورقة ٢٧١.

يريد أن أحضر، «فحذف لدلالة الكلام على ما أراد»^(١).

وأفاد صاحب التبيان من شرح ابن الأفلح إفادة عظيمة، وعدّه من مصادره في شرحه، ونص على شرح بعض الأبيات بقوله: «قال ابن الأفلح». وعلى الرغم من أن نصه على الأفلح كان في عشرين موضعاً، إلا أن ما نقله من شرحه حرفياً يجاوز الثلاثمائة بيت، فضلاً عما أخذه من شرحه جزئياً وكان في خمسة وسبعين موضعاً تقريباً.

ومعنى ذلك أن هذا الشرح معتمد أساس لدى صاحب التبيان إلى جانب ابن جني والواحد اللذين أكثر النص عليهما، على أن تحديد هذا النقل والأخذ يكشف عن مصدر هام في تحقيق شرح التبيان^(٢)، الذي أثر صاحبه أن يعمي على حقيقته، فأوهم أنه من تحليله وتفسيره وتذوقه.

وبدهي أن هذا النقل والأخذ يتجاوز مجموع العدد الذي أشرت إليه (قريب من ٤٠٠) بيت، إذا أضفنا إليه القصيدتين اللتين سبقت الإشارة إلى النصّ فيهما على أبي القاسم الأفلح أو ما يكشف عنه السفر الثاني من هذا الشرح عند التحقيق.

والنقل عن أبي القاسم يتخذ أشكالاً عدة، فهو إما نقل للألفاظ ومعانيها، أو نقل للقضية اللغوية، أو نقل للمعنى والشرح، أو نقل للمعنى والقضية الفنية فيه. فما جاء النقل فيه للفظ والمعنى والقضية اللغوية شرح قول المتنبي:

إن استحسننت وهو على بساط فأحسن ما يكون على الرجال

(١) انظر قصيدة ٨ بيت رقم ٢٤.

(٢) أعلن في نشرة معهد المخطوطات - الكويت - عن تسجيل رسالة بعنوان «التبيان للعسكري دراسة وتحقيقاً لمحمد نجيب قباوة - جامعة دمشق ١٩٨٤.

قال صاحب التبيان: «استحسنت: أراد استحسنته، فحذف الهاء للعلم به، والمفعول به كثيراً ما يحذف، وأنشد سيويه:

فأقبلت زحفاً على الركبتين فثوب لبست وثوب أجر
أراد لبسته وأجره، فحذف المفعولين، لدلالة الكلام عليهما.

المعنى: يقول: إن استحسنت هذا السلاح وهو على بساط، فأحسن ما يكون إذا لبسه الرجال وأظهر فضله القتال»^(١).

وقال أبو القاسم الأفليلي في شرح هذا البيت: «وقوله: «إن استحسنت وهو على بساط» أراد: إن استحسنته، فحذف الهاء لقوة دلالة الكلام عليها، والعرب تفعل ذلك، أنشد سيويه في مثل ذلك:

فأقبلت زحفاً على الركبتين فثوب نسيت وثوب أجر
يريد: نسيت وأجره، وحذف الهاء لدلالة الكلام عليها، فيقول: إن استحسنت هذا السلاح وهو على بساط، فأحسن ما يكون إذا لبسته الرجال، وأظهر فضله القتال»^(٢).

ومما وقع لصاحب التبيان من نقل اللفظ والمعنى والنزعة التعليمية ما جاء في قول المتنبي:

تلقى الوجوه بها الوجوه وبينها ضرب يحول الموت في أجواله
قال في التبيان: «الأجوال: النواحي؛ الواحد: جول.

المعنى: أنه وصف الساعة، فقال: إن وجوه الأبطال الذين لا ينكصون يلقي بعضها بعضاً، وبينها ضرب شديد، وجلاد وكيد، يكثر فيه الموت،

(١) التبيان ٩٤/٣.

(٢) انظر القصيدة ٤٣ البيت رقم ٥.

ويجول في نواحيه، وجانس بقوله: يجول وأجواله؛ لأن حروف يجول والأجوال واحد، والمعنى في الكلمتين مختلف، وهذا في الكلام هو التجنيس»^(١).

وقال ابن الأفلح: «الأجوال: النواحي، واحدها جول.

ثم وصف تلك الساعة، فقال: إن وجوه الأبطال الذين لا ينكصون، يلقي بعضها بعضاً، وبينها ضرب شديد، وجلاد وكيد، يكثر الموت فيه، ويجول في نواحيه، وجانس بقوله يجول الموت في أجواله، لأن حروف الأصل في يجول وفي أجواله واحدة، والمراد بالكلمتين مختلف، واتفاق هذا في الكلام هو التجنيس، وهو من البديع»^(٢).

ونقل صاحب التبيان المعنى والدقائق الفنية في قول المتنبي:

وإذا تعثرت الجياد بسهله برزت غير معثر بجباله

فقال: «المعنى: يقول: إذا بعد سهل الكلام على أهل الإحسان، وصعب انقياده لهم، لصعوبة المقامات التي توجب ذلك، برزت هناك غير مقصر في غوامض القول، ولا متعثر في بدائع الشعر، وكفى بالسهل عما قرب من الكلام، وبالجياذ عن أهل الإحسان، فاستعار هذه الألقاب أحسن استعارة، وأشار إلى إحسانه أبدع إشارة، وهذا من بديع الكلام»^(٣).

ويقول ابن الأفلح: «ثم قال: وإذا بعد سهل الكلام على أهل الإحسان، وصعب انقياده لهم، لصعوبة المقامات التي توجب ذلك، برزت هنالك غير مقصر في غوامض القول، ولا متعثر في بدائع الشعر، وكفى بالسهل عما قرب من الكلام، وبالجبال عما غمض منه، وبالجياذ عن أهل

(١) التبيان ٥٧/٣.

(٢) انظر القصيدة ١٢ البيت رقم ١١ من هذا الشرح.

(٣) التبيان ٥٧/٣.

الإحسان، فاستعار هذه الألقاب أحسن استعارة، وأشار إلى إحسانه أبدع إشارة، وكل ذلك من بديع الكلام»^(١).

وقد يأخذ صاحب التبيان شرح أبي القاسم الأفليلي جزئياً، بأن يعمل فيه الزيادة أو الحذف أو التقديم والتأخير، ومما جاءت الزيادة عليه قول المتنبي:

على عاتق الملك الأغمر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

فبعد أن وجه رواية الفتح والضم لميم الملك في البيت قال: «المعنى: يقول هو سيف يتقلده الخليفة (على إحدى الروايتين)، فهو زين للخليفة ناصر لدين الله، وعلى الرواية الأخرى، هو سيف على عاتق المملكة، نجاده يتزين به الملك، فهو من الملك في أرفع مواضعه، ومن تأييد الله بالجد الذي يمضيه في أعلى مواقعه، وإذا كان كذلك، اكتفه نصره، وساعدته أقداره، فيحتشد يبلغ مراده من أعدائه...»^(٢). فمن قوله «فهو من الملك في أرفع مواضعه إلى قوله وساعدته أقداره» مأخوذ من شرح أبي القاسم الأفليلي^(٣).

ومن تمويه صاحب التبيان أنه يفرق بين معنى ومعنى، في شرح البيت الواحد بما يشعر بتعدد الرؤية في فهم البيت، كأن يقول المعنى... والمعنى، أو المعنى... وتلخيص المعنى، وما المعنى والمعنى أو تلخيص المعنى إلا فهم أبي القاسم الأفليلي مجتمعاً فجعله صاحب التبيان متعدداً، من ذلك قول المتنبي:

أقلُّ بلاءً بالرزايا من القنا وأقدم بين الجحفلين من النبل

قال صاحب التبيان: «المعنى: يقول: إن رهط سيف الدولة أقل

(١) انظر القصيدة ١٢ البيت رقم ١٣.

(٢) التبيان ٣/٣٤١.

(٣) انظر القصيدة رقم ١ البيت رقم ٣٨.

بالرزايا مبالاة من الرماح المتوقعة، وأقعد بين الجيشين المتقابلين من السهام المرسلّة.

والمعنى: لا يبالون بما يصيبهم، كما لا يبالى بها من لا يعرفها، وقوله من القنا، لأنه جحد لا يعرف الرزايا، فشبههم لجراءة أنفسهم، وجلدهم على الرزايا إذا طرقتهم بالرماح والسهام التي تصيب ولا تصاب، وتهاب ولا تهاب»^(١).

وإذا حذفنا من الشرح السابق «وقوله من القنا، لأنه جحد لا يعرف الرزايا، الذي لا يقدم ولا يؤخر في المعنى، كان المعنى؛ هو شرح أبي القاسم الأفليلي إذ يقول: «إن رهط سيف الدولة أقل مبالاة بالرزايا من الرماح المتوقعة، وأنفذ بين الحجفيلين المتقاتلين من السهام المرسلّة، فشبههم لجراءة أنفسهم، وجلدهم على الرزايا إذا طرقتهم بالرماح والسهام، التي تصيب ولا تصاب، وتهاب ولا تهاب»^(٢).

ولئن كان فيما مضى من نماذج بعض دلالة على احتفال صاحب التبيان بشرح أبي القاسم الأفليلي وأهميته لديه، فإن مما يرفع درجة هذا الاحتفال، ويزيد في هذه الأهمية، تفرد أبي القاسم بشرح بعض القصائد أو بعض الأبيات من غير قرين مساعد في الشرح، أو اقترانه بعلمين شهيرين في هذا المجال هما: ابن جني والواحدي.

ففي القصيدة التي يرثي بها أبا الهيجاء ومطلعها:

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي
وتعداد أبياتها اثنان وثلاثون بيتاً، اعتمد صاحب التبيان على شرح أبي القاسم حرفياً بما في ذلك شرح الألفاظ أحياناً، واستعان بابن جني وابن

(١) التبيان ٤٦/٣.

(٢) القصيدة ٨ البيت رقم ١١.

فورجه في البيت التاسع والعشرين، وفي البيت الثلاثين أضاف شرح ابن جني إلى شرح ابن الأفللي، وفي شرح البيت التاسع عشر استعان بشرح الواحدي منفرداً، أما في شرح البيت السابع والعشرين فعقب بجملتين من شرح الواحدي دون أن يسميه بعد شرح الأفللي، واستعان به في شرح البيت الثاني والثلاثين مع شرح أبي القاسم الأفللي^(١).

والجداول التالية توضح مدى استعانة صاحب التبيان بشرح الأفللي ونسبته إلى الشراح في ذلك.

جدول رقم ١

مطلع القصيدة:

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي

الشرح		ابن جني	ابن فورجه	الواحدى	الأفللي
رقم القصيدة	١٧٨				
عدد أبياتها	٣٢				
مرات الشرح المتفرد	-			٣	٢٧
مرات الشرح المشترك	٢	١	١	١	٤

(١) انظر التبيان ٤٣/٣ - ٥٢.

جدول رقم ٢

مطلع القصيدة:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل وعاه فلباه قبل الركب والإبل

الشرح		ابن جنى	ابن فورجه	الواحدى	الأفليلى	ابن القطاع
رقم القصيدة	١٨٢					
عدد أبياتها	٤٨					
مرات الشرح المفرد					٣٧	
مرات الشرح المشترك		٣	٤	٣	٧	١

وتفسير المشترك في هذا الجدول كما يلي:

- الأفليلى والواحدى مرتان.
- الأفليلى مع ابن جنى مرة واحدة.
- الأفليلى مع ابن فورجة مرة واحد.
- الأفليلى مع ابن فورجة والواحدى مرة واحدة.
- الأفليلى مع ابن فورجة وابن جنى مرة واحدة.
- الأفليلى مع ابن فورجة وابن جنى وابن القطاع مرة واحدة.

جدول رقم ٣

مطلع القصيدة:

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال وليل العاشقين طويل

الشرح		ابن جنى	ابن فورجة	الواحدى	الأفليلي	ابن القطاع	أبو الفضل العروضي
رقم القصيدة	١٨٧						
عدد أبياتها	٦٥						
مرات الشرح المتفرد					٥٤		١
مرات الشرح المشترك		٥	٢	٤	١		

وتفسير المشترك في هذا الجدول كما يلي:

الأفليلي والواحدى ثلاث مرات.

الأفليلي وابن جنى وابن فورجة وابن القطاع مرة واحدة.

الأفليلي وابن جنى والواحدى مرة واحدة.

ابن جنى وابن فورجة مرة واحدة.

وتجدر الإشارة إلى أن صاحب التبيان في القصائد الثلاث السابقة لم ينسب إلى الأفليلي شرحه فيما استعان به، على الرغم من عدد المرات الذي يصل إلى مائة وثمانى عشرة مرة، إلا مرة واحدة في القصيدة الثالثة. ولست أدري إن كان النص على الأفليلي في مقدمة الشرح، أو النص عليه عرضاً نادراً، يكفي في عدم اتهامه بنحل شرح غيره قصداً!

ولا يقال إن عدم التوثيق عند صاحب التبيان ليس خاصاً بابن الأفليل، إذ لم ينسب ما أخذه من شرح ابن جنى والواحدى وغيرهما في مرات عديدة، لأن النص على هذين الشارحين ظاهرة واضحة في شرح التبيان.

قيمة شرح أبي القاسم الأفليل

ومن المهم في هذا المجال أن نشير إلى أن فضيلة التميز لشرح الأفليل ظاهرة على نظرائه من الشراح الذين جمعهم به صاحب التبيان، ومن أمثلة ذلك قول المتنبي:

نجوت بإحدى مهجتك جريحة وخلفت إحدى مهجتك تسيل
قال في شرحه: «يريد أن الدمستق ضرب في وجهه في هذه الوقعة، فمضى هارباً، وأسر ابنه، فجعل مهجته مجروحة، وإن كانت الجراحة لا تكون إلا في البدن، لأنها تسري إلى الروح، وقوله «تسيل» قال أبو الفتح: يعني أن ابنه يذوب في القيد هماً وغماً.

وقال الواحدى: ليس قول أبي الفتح بشيء، وإنما المعنى أنه يقتل فيسيل دمه.

والمعنى: أنه يخاطب الدمستق فيقول: أنت وابنك كالشيء الواحد، ومهجتكما كالمهجة المفردة، وإن كنت نجوت بمهجتك بعد الجرح الذي نالك، وخزي الفرار الذي لحقك، فقد تركت مهجتك الثانية في قبض الأسر سائلة، ولحقيقة الهلاك مباشرة، فما أدرك ابنك أدركك، وما لحقه فقد لحقك»^(١).

وإذا أضربنا صفحاً عن نسبة صاحب التبيان جزءاً من هذا الشرح دون تمامه إلى الواحدى^(٢)، وعدم نسبته إلى أبي القاسم الأفليل الشرح الواقع بعد

(١) التبيين ١٠٦/٣.

(٢) انظر ديوان المتنبي شرح الواحدى ج ٢/٥٢٠.

قوله: والمعنى، فإن شرح أبي القاسم الأفليلي يتميز على ابن جنى والواحدى بإدراك العمق النفسي في التوحد بين الأب والابن في المشاعر والأحاسيس، فما أصاب أحدهما أصاب الآخر.

وفي قول المتنبي:

ولا ترد الغدران إلا وماؤها من الدّم كالريحان تحت الشقائق
كان فهم الأفليلي متميزاً أيضاً بين الشراح الذي اعتمد عليهم صاحب التبيان.

«قال أبو الفتح: لكثرة ما قتل من الأعداء جرت دماؤهم إلى الغدران فغلبت على خضرة الماء حمرة الدم، والماء يلوح من خلال الدم، فالريحان تحت الشقائق؛ لأن ماء الغدير أخضر من الطحلب، فشبه خضرة الماء وحمرة الدم بالريحان تحت الشقائق.

وقال ابن فورجة: لا تشرب خيله الماء إلا وقد حاربت عليه، واحمرّ الماء من دم الأعداء، كما قال بشار:

فتى لا يبيت على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم
ويجوز^(١) أن يكون أراد أن خيله لا تقرب الغدران واردة، ولا تقتحم مياهها شاربة، إلا وتلك المياه تحت ما يسفكه من دماء أعدائه، كالريحان في خضرته، إذا استبان تحت الشقائق، واستولت بحمرتها على جملته، وأشار بخضرة بالماء إلى صفائه وكثرته، ونبه بذلك على جمومه، وأن هذه الخيل إنما تأنس من الماء ما هذه صفته، وترد منه ما هذه حقيقته»^(٢).

فإذا كان ابن فورجة (٤٠٠ - ٤٥٠ هـ) تطابق في فهمه مع جانب من

(١) انظر القصيدة ٦٦ البيت رقم ٤٣.

(٢) التبيان ٣٣٠/٢.

فهم ابن الأفليلي وهو عادة خيل سيف الدولة في الشرب من المياه التي احمرت من سفك دماء الأعداء؛ فإن مغاييرته في هذا الفهم بدلالة الخضرة التي فسرها بصفاء الماء وكثرته وجمومه، تدل على ذوق يقصد إلى ما وراء الدلالة الظاهرة في ورود الخيل، وخضرة الماء.

والحق أن لأبي القاسم الأفليلي في شرح هذه السيفيات شخصية متميزة مصدرها ثقافته وذوقه وذكاؤه وفهمه، إذ كان معتدلاً بذاته كثيراً وقد «بذ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي»، «متصديراً بالأندلس بقرىء علم الأدب، ويُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه،... ويتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما»، «عظيم السلطان على شعر حبيب الطائي وأبي الطيب المتنبي».

ولذلك لم نجد في شرحه ذكراً لأحد من شراح المتنبي ممن سبقه إليه، شأن المتأخر في إفادته من المتقدم، وكما هي عادة بعض من شرح ديوان المتنبي مثل الواحدي الذي أخل كثيراً من الأبيات من شرحه، وأقام مكانه قول ابن جني أو ابن فورجة.

ولا يعني ما سبق أنني أباعد بين أبي القاسم الأفليلي والإطلاع على جهد من سبقه، ولكنني قصدت إلى استقلالية فهمه، وتمييز اتجاهه، ولذلك أسقط اعتراض غيره، وإن كان خاطئاً، ولم يأبه لرأي من سبقه وإن كان صائباً. وفي قول المتنبي التالي مثال على ذلك إذ يقول:

الشمس من حساده والنصر من قرنائه والسيف من أسنائه
أين الثلاثة من ثلاث خالاه من حسنه وإبائه ومضائه

«قال أبو الفتح: يقول: أين حسن الشمس من حسنه، وأين النصر من إبائه، وأين مضاء السيف من مضائه، أي إذا أتى أمر، قصر السيف عن عزيمته وإبائه. وكأنه رجع في هذا البيت عما أعطى له في البيت الذي قبله، ولو قال وأين بالواو لكان أغرب؛ لأن الواو تخلط الثاني بالأول، ولا تجعل لأحدهما مزية

على الآخر في التقدم والتأخر، وإذا لم يأت بالواو صار الكلام كأنه منقطع، ألا ترى إلى قول الراجز:

«يا فقعسا وأين مني فقعس»^(١).

ولم يلتف أبو القاسم الأفليلي إلى اعتراض ابن جني ونقده في شرحه لهذا البيت إذ يقول: «ثم قال: أين هذه الثلاثة مع جلاله أمرها، ورفعة قدرها من جلال خلاله الثلاثة، التي هي على نحوها لجلالة الفضل، لأن الشمس تطلع وتغرب، والنصر يقل ويكثر، والسيف ينبو ويقطع، وحسنه ثابت لا يعدم، وعزه زائد لا ينقص، ومضاؤه نافذ لا يدفع.

وهذه طريقة من المجاز يحسنها للشعراء ما يحاولونه من بلوغ غايات المدح، وما يتعارف من مثلها في اللغة»^(٢).

لكن أبا القاسم أدرك علة المفارقة في البيتين التي أقام عليها المتنبي التباين بين ما قَدَّم من معانٍ حسية متغيرة في البيت الأول، وما أَرخ من قيم جمالية معنوية ثابتة في البيت الثاني، وقد وصل أبو القاسم إلى ذلك بحسن تودده للمعاني بعمق صلاتها من غير حاجة إلى قسرية إعمال اللغة وسطوة قاعدتها.

ويؤيد أبا القاسم الأفليلي فيما ذهب إليه المتأخرون من الشراح مثل ابن المستوفي وأبي البقاء العكبري، إذ يقول ابن المستوفي: «قال المبارك بن أحمد، والصحيح أنه أراد أين حسن الشمس من حسنه، وأين النصر من إباطه ومن امتناعه؛ لأنه إذا أبى شيئاً كان أوفى من النصر، وأين مضاء السيف من مضائه؛ لأن السيف به نباء أو كل، وهو لا ينبو ولا يكل...» وقال أبو البقاء العكبري: قالوا: وكان الأحسن أن يقول وأين بالواو وليختلط هذا

(١) النظام في شرح المتنبي وأبي تمام ج ١ ورقة ٢٦.

(٢) انظر القصيدة ٤٦ البيتين ٥ - ٦.

البيت بما قبله، وكأن كلامه مستقل بنفسه، وله نظائر في الشعر بالواو. وحذف الواو هنا يسير لا يضعف المعنى به، لأنه مذكور عقيب الأشياء الثلاثة، وفي الثلاثة الألف واللام وهما للمعهود السابق، فنزل ذلك منزلة الواو، وأعاد من مع البدل. والذي قاله أبو الفتح أولى وأكثر في الشعر»^(٢).

وعلى الرغم من وضوح شخصية الأفليلي في شرحه فقد ظلمه ابن المستوفي إذ لم ينقل عنه شيئاً، ولم يشر إليه أية إشارة، على كثرة المصادر التي أخذ عنها، والشرح الذين نصّ على أسمائهم من سابق الأفليلي ومعاصريه ومن تأخروا في أزمانهم عنه، مثل ابن جني، الواحدي، ابن فورجة، أبي العلاء المعري، العروضي، أبي البقاء العكبري، أبي زكريا الخطيب التبريزي، الشريف المرتضى، صاحب فتح الكوائم أبي علي الحسن به عبدالله المغربي الصقلي.

فيقول ابن المستوفي في مقدمة النظام «والناس في شعره اثنان؛ محام عنه مفرط، ومتعصب عليه مفرط، وكلاهما متجاوز به حدّه، غال فيه حكمه، دفاعاً عنه وتحاملاً عليه، وهم مع ذلك عن معانيه أشدّ سؤالاً وأكثر في كل مقام مقالاً، وأنا أجمع من أقوال العلماء في ذلك ما وافى البحث عنه إليه، ووقفني العلم به عليه، مختصر ما أورده بوسع جهدي، ومصححه بقدر طاقتي، وناسبه إلى قائله، ومسنده إلى ناقله...»^(٢).

ويقول ابن المستوفي في موضع آخر «... ولما كتبت ذلك نظرت في كتاب أبي زكريا لأنقل منه إلى هنا ما يحسن نقله»^(٣).

وعلى ذلك فهل عدّ ابن المستوفي أبا القاسم الأفليلي أحد طرفي النزاع

(١) النظام في شرح المتنبي وأبي تمام ج ١ / ورقة ٢٦.

(٢) النظام ج ١ ورقة ١

(٣) النظام ج ٢ ورقة ٧٣.

في المحاماة عن أبي الطيب بإفراط؟ أم أنه لم يجد عند الأفليلي ما يحسن نقله؟! .

لا نستطيع أن نخلي الشروح التي نقل عنها ابن المستوفي من التعصب لأبي الطيب، وكذلك فإن بعضاً مما نقله منها لا كبير غناء فيه، إذ لا يجاوز الجملة المقتضبة البسيطة، لكن كثيراً منها كانت معرضاً للغة وتطبيق قواعدها واستعراض أحكامها، فضلاً عن ذكر للمآخذ ودفع لها، وهو ما لم يأبه له ابن الأفليلي أساساً في شرحه.

وللرواية في شرح أبي القاسم الأفليلي أهمية خاصة، فهو معتمد لإحدى الطرق المتقدمة التي روي بها ديوان المتنبي في الأندلس، قال ابن خير الأشبيلي: «حدثني به الوزير أبو بكر محمد بن هشام بن محمد المصحفي، قال: قرأته على أبي رحمه الله، وأخبرني به عن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن قادم وأبي يحيى زكريا بن بكر بن أحمد بن الأشج الغساني، والأشج هو أحمد، يكنى أبا جعفر، وأبي القاسم الحسين بن الوليد، يعرف بابن العريف، كلهم عن أبي الطيب المتنبي. قال أبو بكر المصحفي: أما ابن قادم وابن الأشج فعن المتنبي، وأما ابن العريف فعن أبي بكر الطائي عن المتنبي»^(١).

وأخذ أبو القاسم الأفليلي ديوان المتنبي عن ابن العريف، قال ابن الأفليلي: «قرأته على أبي القاسم الحسين بن الوليد، ويعرف بابن العريف، عن أبي بكر الطائي، وإبراهيم المغربي، كلاهما عن أبي الطيب»^(٢).

وعن أبي القاسم الأفليلي أخذ ثقات الرواية في الأندلس إذ حدث به أبو مروان عبد الملك بن سراج عن الأفليلي، وحدث به الأعلام الشنتمري أبو

(١) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص ٤٠٣ - ٤٠٤ وروى ديوان المتنبي في الأندلس عن أبي الفتح ثابت بن محمد الجرجاني عن أبي الحسن علي بن الحارث البيري عن أبي الطيب.

(٢) فهرسة ابن خير الأشبيلي ص ٤٠٣.

الحجاج يوسف بن سليمان النحوي قراءة عليه، وحدث به الوزير أبو تميم العز بن محمد بن أبي موسى بقنه^(١).

ولأسلوب أبي القاسم الأفليلي مميزات تجعله ظاهراً متفرداً بين شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، فكما حرص على الأداء المفهم باللفظ البسيط السهل، فإنه كان أشد حرصاً على التعبير الأدبي ذي الألفاظ المتقاة، والتركيب ذات الأبعاد الإيقاعية الفنية. ويتبدى انتقاء اللفظ في شرحه لقول المتنبي:

تنكسهم والسابقات جباههم وتطعن فيهم والرماح المكائد
قال الأفليلي: «ثم وصف حال أولئك، فقال: تنكسهم والخيول جباههم، يريد أنهم لا يتعاطون مقاتلتك بالخيول، وإنما يعتصمون منك بالجبال، فهي خيلهم، واستتراهم منها تنكسهم، ونقل الكلام على سبيل الاستعارة، ثم قال: وتطعن فيهم بغير الرماح لأنهم يعجزون عن مبارزتك، فتستعمل فيهم من مكائلك ما تفتح معه حصونهم، وتوجه إليهم من تدبيرك ما تصدع به قلوبهم، فتزلهم مما ارتفعوا إليه بعزمك، وتطعن فيهم حيث تحرزوا منك برأيك»^(٢).

ويغلب السجع والمزاوجة بين الجمل على صياغة أبي القاسم الأفليلي، بما يكسب شرحه طابعاً أدبياً، يتردد فيه إيقاع موسيقي مقصود دون تصيد أو تكلف غالباً، يقول في شرح قول المتنبي:

فيا أيها المطلوب جاوره تمتنع ويا أيها المحروم يمه ترزق
«ثم يقول: فيا أيها الخائف المطلوب، والمروع المحروب، جاور سيف الدولة تمتنع بعزه، وتأمين من المخاوف بما يمه عليك من ظله، ويا أيها

(١) فهرسة ابن خير ص ٤٠٣.

(٢) انظر القصيدة ٣٠ بيت رقم ٢٢.

المحروم في قصده، والمضيق عليه في رزقه، يمه تسعد بقصده، وتقدم
المكثرين بما يشملك من فضله»^(١).

والصنعة في هذا النثر التأليفي مقصودة عند أبي القاسم، فغدا شرحه
أدباً إنشائياً يعمل فيه براعة في الاشتقاق البديعي وتصعيد المعنى من خلال
ذلك. ونلمس ذلك في تناوله لقول المتنبي:

طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب
«ثم يقول له: طلبت بني كلاب على الأمواه التي هي مظان الأعراب في
ارتحالها، ومنازلها عند انتقالها، فبلغت غايات تلك الفلوات النائية، ودوخت
أقاصي تلك الرمال الشاسعة، وقرب عليك منها ما يقرب مثله، وفعلت في
التوصل إليها ما لا يمكن غيرك فعله، ونلت من ذلك ما ليس السحاب بأبعد
منالاً منه، ولا يخرج بشدة الامتناع عنه، ودلّ بقوله (تخوف أن تفتشه
السحاب) على هذه العبارة»^(٢).

إن النظرة في قوله «قرب... ما يقرب، وفعلت... ما لا يمكن غيرك
فعله، ونلت... ما ليس السحاب بأبعد منالاً منه» تنبئ عن قصد في
تصعيد المعنى وتشقيقه لفظياً بما يحقق له التحسين والتزيين للصياغة
والأسلوب.

ولا يخفى ما وراء هذا التشكيل الفني بالسجع والمزاوجة والاشتقاق
البديعي من معنى، وفائدة بيانية، وأكثر هذا التزيين يجري في
شرحه مجانباً للتكلف، لكن الإبانة قد تتعثر بالتزيين والصنعة فيكون التكلف
في اصطیاد السجع لديه أحياناً، من ذلك شرحه لقول المتنبي:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

(١) انظر القصيدة ٤٢ بيت رقم ٤٠.

(٢) انظر القصيدة ٦٣ بيت رقم ٤.

إذ يقول: «وما الدهر إلا من رواة أشعاري التي هي كالعقود والأطواق، والقلائد في الأعناق، فإذا قلت شعراً فالدهر ينشده مرفعاً به، ويرويه قصيداً له، ويبقيه ما بقيت الأيام، ويخلده ما أعملت الأفلام»^(١).

فالإحساس غير خاف بثقل القلائد في الأعناق، التي حشرت من غير معنى لتناسب العقود والأطواق، والتكلف باد على قوله «ويخلده ما أعملت الأفلام» وإن كان المعنى محتملاً لها، إذ جاءت لإحداث التناغم مع «وبقيه ما بقيت الأيام».

غير أن هذا التكلف البادي أحياناً على شرحه لا يناع في اطراد مهارته الفنية في اختيار العبارة الرائقة المقبولة ذات الدلالة على المقصود والمعنى، وهذا لا يتناكر مع ما نعت به ابن حيان رسائله حين قال «واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن برد، فوقع كلامه جانباً من البلاغة، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين، فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين فزهد فيه»^(٢) لأن تولي أبي القاسم الأفليل لهذا المنصب دليل امتياز أدبي كان ظاهراً به، وشارة اتجاه جمالي كان مُثَلِّلاً في نتاجه، فرشحه ذلك لهذا المنصب الذي كانت دولة الخلافة الأندلسية تجري سننها على الاهتمام به في مكاتباتها الرسمية^(٣)، ومثل هذه المكانة تحمل الكثيرين على حسد صاحبه وتكبير هفواته، وتصيّد زلاته.

وأياً كان الرأي في طريقة أبي القاسم الكتابية فإن شرحه لشعر أبي الطيب المتنبي يظل صورة للفن في النثر التأليفي الذي ماز القرن الخامس الهجري في الأندلس عن نظيره الأدب العربي في المشرق، حين جرت التأليف الأدبية في الأندلس كالبديع في وصف الربيع، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحمل أناقة التعبير في اللفظ المنتقى، والصياغة الموقعة.

(١) انظر القصيدة ٥٧ بيت رقم ٣٦.

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨١.

(٣) ديوان ابن شهيد - يعقوب زكي ص ١٥.